71 - ـ فصل : أهل البدع و التشبيه .

اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول محروس القواعد لا خلل فيه و لا دخل و كذلك كل الشرائع .

إنما الآفة تدخل من المبتدعين في الدين أو الجهال .

مثل ما أثر عند النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام فتأملوا الخارق للعادة الذي لا يصلح للبشر فنسبوا الفاعل إلى الإلهية .

و لو تأمل ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص و الحاجات و هذا القدر يكفي في عدم صلاح إلهية فيعلم حينئذ ما جرى على يديه فعل غيره .

وقد يؤثر ذلك في الفروع مثل ما روي أنه فرض على النصارى صوم شهر فزادوه عشرين يوما ثم جعلوه في فصل من السنة بآرائهم .

و من هذا الجنس تخبيط اليهود في الأصول و الفروع و قد قارب الضلال في أمتنا هذه المسالك و إن كان عمومهم قد حفظ من الشرك و الشك و الخلاف الظاهر الشنيع لأنهم أعقل الأمم و أفهمها .

غير أن الشيطان قارب بهم و لم يطمع في إغراقهم و إن كان قد أغرق بعضهم في بحار الضلال فمن ذلك أن الرسول صلى ا عليه و سلم : جاء بكتاب عزيز من ا D قيل في صفته : { ما فرطنا في الكتاب من شيء } و بين ما عساه بشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له : { لتبين للناس ما نزل إليهم } فقال بعد البيان : تركتكم على بيضاء نقية فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه و لم يرضوا بطريقة أصحابه فبحثوا ثم إنقسموا .

فمنهم : من تعرض لما تعب الشرع في إثباته في القلوب فمحاه منها فإن القرآن و الحديث يثبتان الإله D بأوصاف تقرر وجوده في النفوس كقوله تعالى : { استوى على العرش } و قوله تعالى : { بل يداه مبسوطتان } و قوله تعالى { و لتصنع على عيني } و قول النبي صلى ا عليه و سلم : [ينزل ا إلى السماء الدنيا و يبسط يده لمسيء الليل و النهار و يضحك و يغضب] .

كل هذه الأشياء ـ و إن كان ظاهرا يوجب تخايل التشبيه فالمراد منها إثبات موجود فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهمات عند سماعها قطع ذلك بقوله : { ليس كمثله شيء } .

ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المعجز الأكبر و قد قصد الشرع تقرير وجوده فقال : { إنا أنزلناه } { نزل به الروح الأمين } { فذرني و من يكذب بهذا الحديث } { و هذا كتاب أنزلناه } و أثبته في القلوب بقوله تعالى : { في صدور الذين أوتوا العلم } و

في المصاحف قوله تعالى : { في لوح محفوظ } و قول رسول ا صلى ا عليه و سلم : [لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو] .

فقال قوم من هؤلاء : مخلوق فأسقطوا حرمته من النفوس و قالوا : لم ينزل و لا يتصور نزوله و كيف تنفصل الصفة عن الموصوف و ليس في المصحف إلا حبر و ورق ؟ فعادوا على ما تعب الشرع في إثباته بالمحو .

كما قالوا : إن ا D ليس في السماء و لا يقال إستوى على العرش و لا ينزل إلى السماء الدنيا بل ذاك رحمته فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها و ليس هذا مراد الشرع .

و جاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : ا على العرش و لم يقنعوا بقوله : { ثم استوى على العرش } .

و دفن لهم أقوام من سلفهم دفائن و وضعت لهم الملاحدة أحاديث فلم يعلموا ما يجوز عليه ممالا يجوز فأثبتوا بها صفاته و جمهور الصحيح منها آت على توسع العرب فأخذوهم على الظاهر فكانوا في ضرب المثل كجحا فإن أمه قالت له : إحفظ الباب فقلعه و مشى به فأخذ ما في الدار فلامته أمه فقال : إنما قلت إحفظ الباب و ما قلت إحفظ الدار .

و لما تخايلوا صورة عظيمة على العرش أخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش مثل قوله : [و من أتاني يمشي أتيته هرولة] فقالوا : ليس المراد به دنو الإقتراب و إنما المراد قرب المنزل و الحظ .

و قالوا في قوله تعالى : { إلا أن يأتيهم ا في ظلل } : هو محمول على ظاهرها في مجيء الذات فهم يحلونه عاما و يحرمونه عاما .

و يسمون الإضافات إلى ا تعالى صفات فإنه قد أضاف إليه النفخ و الروح .

و أثبتوا خلقه باليد فلو قالوا خلقه لم يمكن إنكار هذا بل قالوا هي صفة تولى بها خلق آدم دون غيره .

فأي مزية كانت تكون لآدم ؟ .

فشغلهم النظر في فضيلة آدم عن النظر إلى ما هو يليق بالحق مما لا يليق به .

فإنه لا يجوز عليه المس و لا العمل بالآلات و إنما آدم أضافه إليه فقالوا : نطلق على ا تعالى إسم الصورة لقوله : [خلق آدم على صورته] .

و فهموا هذا الحديث و هو قوله عليه السلام : [إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه و لا يقل قبح ا وجهك و لا وجها أشبه وجهك فإن ا خلق آدم على صورته] .

فلو كان المراد به ا D لكان وجه ا سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لأن الحديث كذا جاء ـ و لا وجها أشبه وجهك ـ و رووا حديث خولة بنت حكيم : و إن آخر وطئة وطئها ا بوج و ما علموا النقل و لا السير و قول الرسول صلى ا عليه و سلم : [اللهم أشدد وطأتك على مضر]

و أن المراد به آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوج و هي غزاة حنين فقالوا : نحمل الخبرعلى ظاهره و أن ا وطئ ذلك المكان .

و لا شك أن عندهم أن ا تعالى كان في الأرض ثم صعد إلى السماء و كذلك قالوا في قوله [إن ا لا يمل حتى تملوا] قالوا : يجوز أن ا يوصف بالملل فجهلوا اللغة و ما علموا أنه لو كانت حتى ههنا للغاية لم تكن بمدح لأنه إذا مل حين يمل فأي مدح و إنما هو كقول الشاعر : .

(جلبت مني هزيل بخرق ... لا يمل الشر حتى يملوا) .

و المعنى لا يمل و إن ملوا .

و قالوا في قوله عليه الصلاة السلام : [الرحم شجنة من الرحمن تتعلق بحقوي الرحمن] فقالوا ـ الحقوا ـ صفة ذات و ذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت .

و عمومها وضعته الملاحدة كما يروى عن عبد ا بن عمرو و قال : [خلق ا الملائكة من نور الذراعين و الصدر] فقالوا : نثبت هذا على ظاهره ثم أرضوا العوام بقولهم : و لا نثبت جوارح فكأنهم يقولون فلان قائم و ما هو قائم .

فاختلف قولهم هل يطلق على ا D إنه جالس أو قائم كقوله تعالى : { قائما بالقسط } .

و هؤلاء أخس فهما من جحا لأن قوله { قائما بالقسط } لا يراد به القيام و إنما هو كما يقال : الأمير قائم بالعدل .

و إنما ذكرت بعض أقوالهم لئلا يسكن إلى شيء منها فالحذر من هؤلاء عبادة .

و إنما الطريق طريق السلف على أنني أقول لك قد قال أحمد بن حنبل C عليه [من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال] .

فلا ينبغي أن تسمع من معظم في النفوس شيئا في الأصول فتقلده فيه .

و لو سمعت عن أحدهم ما لا يوافق الأصول الصحيحة فقل : هذا من الراوي لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول بشيء من رأيه .

فلو قدرنا صحته عنه فإنه لا يقلد في الأصول و لا أبوبكر و لا عمر Bهما .

فهذا أصل يجب البناء عليه فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس .

و كان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم و أنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به .

و لقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس حتى إنهم يرون أفعالهم فيستعبدون الطريق .

و أكثر أدلة هذه الطريق القصاص فإن العامي إذا دخل إلى مجلسهم و هو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيد و إرشادات الشبلي فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية و ترك الكسب للعائلة و مناجاة الحق في خلوة على زعمه .

مع كونه لا يعرف أركان الصلاة و لا أدبه العلم و لا قوم أخلاقه شيء من مخالطة العلماء .
فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإصطبل .
فأن امتد عليه الزمان في تقﷲ زاد يبسه فربما خايلت له الماليخوليا أشباحا يظنهم الملائكة ثم يطأطئ رأسه و يمد يده للتقبيل .
فكم قد رأينا من أكار ترك الزرع و قعد في زاوية فصار إلى هذه الحالة فاستراح من تعبه .
فلو قيل له : عد مريضا قال : مالي عادة فلعن اﷲ عادة تخالف الشريعة .
فيرى العامة بما يورده القصاص أن طريق الشرع هذه لا التي عليها الفقهاء فيقعون في الضلال .
و من المتزهدين من لا يبالي عمل بالشرع أم لا .
ثم يتفاوت جهالهم فمنهم من سلك مذهب الإباحة و يقول : الشيخ لا يعارض و ينهمك في المعاصي .
و منهم : من يحفظ ناموسه فيفي بغير علم لئلا يقال : الشيخ لا يدري .
و لقد حدثني الشيخ أبو حكيم C : أن الشريف الدحالتي ـ و كان يقصد فيزار و يتبرك به ـ حضر عنده يوما فسأل أبو حكيم : هل تحل المطلقة ثلاثا إذا ولدت ذكرا ؟ قال : .
فقلت : لا و اﷲ فقال لي الشريف : اسكت فو اﷲ لقد أفتيت الناس بأنها تحل من ههنا إلى البصرة .
و حكى لي الشيخ أبو حكيم : أن جد آذاذ الحداد و كان يتوسم بالعلم جاءت إليه امرأة فزوجها من رجل و لم يسأل عن انقضاء العدة فاعترضها الحاكم و فرق بينها و بين الزوج و أنكر على المزوج فلقيته المرأة فقالت يا سيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتني ؟ فقال [دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة] .
و حدثني بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان يسجد للسهو سنين و يقول : و اﷲ ما سهوت و لكن أفعله احترازا فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجودا غير مشروع .
ثم من الدخل الذي دخل ديننا طريق المتصرفة فإنهم سلكوا طرقا أكثرها تنافي الشريعة و أهل التدين منهم يقللون و يخففون .
و هذا ليس بشرع حتى إن رجلا كان قريبا من زماني يقال له كثير دخل إلى جامع المنصور و قال : عاهدت اﷲ عهدا و نقضته فقد ألزمت نفسي ألا تأكل أربعين يوما .
فحدثني من رآه أنه بقي عشرة أيام في العشر الرابع أشرف على الموت قال : فما إنقضت حتى تفرغ فصب في حلقه ماء فسمعنا له نشيشا كنشيش المقلاة ثم مات بعد أيام .
فأنظروا إلى هذا المسكين و ما فعله به جهلة .

و منهم من فسح لنفسه في كل ما يحب من التنعم و اللذات و اقتنع من التصوف بالقميص و الفوطة و العمامة اللطيفة و لم ينظر من أين يأكل و لا من أين يشرب و خالط الأمراء من أرباب الدنيا و لباس الحرير و شراب الخمور حفظا لماله و جاهه .

و منهم أقوام سننا لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت .

و منهم من أكب على سماع الغناء و الرقص و اللعب ثم إنقسم هؤلاء فمنهم من يدعي العشق فيه و منهم من يقول بالحلول و منهم من يسمع على وجه الهوى و اللعب .

و كلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام .

و هذا الشرح يطول و قد صنفت كتبا ترى فيها البسط الحسن إن شاء ا تعالى منها [تلبيس إبليس] .

و المقصود أن تعلم أن الشرع تام كامل فإن رزقت فهما له فأنت تتبع الرسول صلى ا عليه و سلم و أصحابه و تترك بنيات الطريق و لا تقلد في دينك الرجال فإذا فعلت فإنك لا تحتاج إلى وصية أخرى .

و إحذر جمود النقلة و إنبساط المتكلمين و جموع المتزهدين و شره أهل الهوى و وقوف العلماء على صورة العلم من غيل عمل و عمل المتعبدين بغير علم .

و من أيده ا تعالى بلطفه رزقه الفهم و أخرجه عن ربقة التقليد و جعله أمة وحده في زمانه لا يبالي بمن عبث و لا يلتفت إلى من لام قد سلم زمامه إلى دليله في واضح السبيل .

عصمنا ا و إياكم من تقليد المعظمين و ألهمنا إتباع الرسول صلى ا عليه و سلم فإنه درة الوجود و مقصود الكون صلى ا عليه و سلم و على آله و أصحابه و أتباعه و رزقنا إتباعه مع أتباعه